

هنا لا يغض التزام الشاعر من مستوى القصيدة الفني ، بل تسمو القصيدة فنيا بمفهوم الشاعر الجديد للالتزام .

لكن تطور مفهوم محمود درويش لمعنى الالتزام طرح امامه قضية جديدة : كيف يستطيع الشاعر المتقدم ان يصل بنتاجه الشعري الى الجماهير ، ويحافظ في الوقت نفسه على مستوى فني رفيع للقصيدة ؟ يقول درويش : « ولكن « آخر الليل » الذي اعتبره افضل ما كتبت ، استقبل بفتور علمي من اغلبيه القراء في بلادنا . وقال لي عشرات من المثقفين : يا محمود ! عد الى الوراء . اذا كان هذا هو التقدم الفني فليتك لم تتقدم ؛ وقيل لي بشفقة : « ليتك لم ترحل عن القرية . . هذا الشعر غير مفهوم » . . . من المكابرة ان اقول اني لم أشعر بعذاب نفسي . هل يترتب علي ، لكي لا ينقطع التفاعل بين شعري وبين الناس ، ان اعود الى التعبير المباشر ، والحث الصريح على الكفاح والتمسك بالأمل والعقيدة ؟ . . . ان هذه الاسئلة تشغل بالي بشكل ملح ، وخاصة اني اعتبر نفسي شاعرا ثوريا يخاطب الجماهير ويلتزم بقضية الجماهير ويكتب من اجل الجماهير » (٢٦) . والاجابة ، في رأبي ، هي ان على الشاعر ان يروض القراء على تلقي الشعر الجيد الذي لا يخضع لسهولة التعبير المباشر ، لا ان يستجيب للسهولة المتبغاة ، وبذلك يتحمل الشاعر الملتزم بالاضافة الى مسؤولية النضال والتعبير ، مسؤولية النهوض بالذوق العام ، والانتقال به من طور القصيدة الكلاسيكية الخطابية الى القصيدة الحديثة التي لا تستسلم للخطابية والمباشرة .

لم ينشر محمود درويش مجموعة شعرية قبل ديوانه « العصفير تموت في الجليل » الصادر عن دار الاداب في حزيران عام ١٩٧٠ . وان كانت قد « أصدرت » للشاعر ثلاثة دواوين لم يختر قصائدها ولا عناوينها : اثنان منها عام ١٩٦٩ ، حمل احدهما عنوان « حبيتي تنهض من نومها » ، والثاني عنوان « يوميات جرح فلسطيني » ، وثالث عام ١٩٧٠ حمل عنوان « الكتابة على ضوء بندقيّة » . وقد كانت هذه الدواوين تجميعا لقصائد مختلفة ظهرت للشاعر في المجلات والجرائد ، لا تربطها تجربة واحدة ولا زمن متقارب ، وتكرر بعضها في اكثر من مجموعة شعرية ، وشاعت فيها اخطاء كثيرة مختلفة (٢٧) .

وقد أشار محمود درويش الى هذه القضية في مقابلة اجرتها معه مجلة الاداب حين قال : « لست متحمسا للطريقة التي تنشر فيها كتبي في بيروت . اني اسمع عن صدور كتب لم أصدرها . لماذا ؟ لم أبت بعد ، عندما أموت افعلوا بي ما تشاؤون ، ولكن الان دعوني اعمل على مهلي . دعوني اكتب في الظل ، واتركوا لي ان اقرر متى اخرج الى الضوء . وأرجو ان يكون لي الحق في مطالبة النقاد بالا يحاسبونني الا على ما أصدره أنا . ولذلك من الضروري ان اقول اني لم أصدر منذ مجموعة « آخر الليل » الصادرة في كانون الاول ١٩٦٧ الا مجموعة واحدة هي « العصفير تموت في الجليل » . ومع ذلك اريد ان اشكر الناشرين الذين يهتمون باعمالني . ولكنه شكر مشوب بالعتاب الودي » (٢٨) .

لهذا السبب لن اتوقف عند هذه المجموعات الشعرية ، بل عند ديوان « العصفير تموت في الجليل » ، الذي صدر خلال اقامة الشاعر في موسكو ، وكتبت معظم قصائده عام ١٩٦٩ ، عندما وصلت القضية الفلسطينية الى ذروة تأزمها : فالعدو الصهيوني يضم الاراضي التي احتلت ، ويواصل ارهابه اليومي ضد الشعب الفلسطيني ، والعالم يتفرج على الجازر المتواصلة ولا يحرك ساكنا ، والثورة الفلسطينية تواصل عملياتها العسكرية لتحرير الوطن المغتصب . وقد انطلقت تجربة محمود درويش الشعرية من هذا الواقع ، فقل في التعبير عن تجربته الشعرية في هذا الديوان : « دم على الطرقات وفي كل الحدائق . . . وعلى مرايا العالم ، والحقيقة تأخذ شكل المذبحة . والضحية مطلوبة باثبات براءتها ، ولا تقاض الا الموت . هل استطاع وطني ان يملك الا حرته في